الفصل السادس

العـــودة إلـــى أمريكـــا

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

العودة إلى أمريكا

عدت إلى أمريكا محملاً بالمعلومات التي جمعناها من تربة. أكثر من ٣٠٠ ملف احتوتها ثلاثة صناديق ضخمة، نفسها المعلومات التي يمكن أن يحتويها اليوم بضعة أقراص مدمجة توضع في الجيب، استقر بي المقام مرة أخرى في مكتبي الصغير في مبنى الكلية المطل على تقاطع شارعي وولف وواشنطن في مدينة بلتيمور. وبدأت بمساعدة زوجتي في تحليل المعلومات وتبويبها، ورحت أكتب فصول الأطروحة.

أضحت الحياة في أمريكا في سنتنا الأخيرة أرحب نسبياً، جاءني بعض الدعم المالي من الجامعة كباحث، ولم تعد هناك مناهج دراسية أتلقاها إلا القليل، مما أعطانا فسحة لشيء من النشاط الاجتماعي والترفيهي.

تزودنا بلوازم الرحلات.. خيمة صغيرة وأوانٍ للطهو وأكياس للنوم (sleeping bags) ورتبنا جدولاً للرحلات في نهايات الأسبوع إلى ريف ولاية ماريلاند والولايات المجاورة. نبيت ليلتنا في أطراف غابة أو على شاطئ نهر أو على ضفاف بحيرة. كانت رحلات ممتعة وغير مكلفة، أتاحت لنا فرصة التعرف على الحياة الأمريكية.

انقضى العام وبعض العام في تحليل المعلومات التي جمعناها من تربة، والفحوصات المخبرية التي قام بها مركز الأمراض المتنقلة في ولاية جورجيا. واستعملنا في تحليل البيانات وتبويبها الكمبيوتر، وكان قبل اختراع الكمبيوتر الشخصي يملأ حجرة واسعة.

لن أتحدث هنا عن نتائج الدراسة فقد نشرتها في كتاب لي بعنوان «صحة العائلة في مجتمع عربي متغير» أصدرته مؤسسة تهامة. ولكني أستطيع أن أقول بإيجاز إني وجدت في دراستي للوضع الصحي في تربة عام ١٣٨٧م مشاكل صحية عديدة، مردها إلى الظروف البيئية والمعيشية وأسلوب الحياة. وعندما زرت تربة بعد خمس عشرة سنة وجدت المستوى الصحي قد ارتفع. لم يكن مرد ذلك إلى الخدمات الصحية بقدر ما هو نتيجة للتطور الذي حدث في مستوى الدخل والمعيشة والغذاء.

انتهيت من كتابة رسالتي للدكتوراه بإشراف أستاذي تيموثي بيكر. أستاذي لا يحمل إلا درجة الماجستير ولكن معادن الرجال وقدراتهم لا توزن بما يحملونه من شهادات. وعندما ذكرت له أن العبقري الفذ عباس العقاد لا يحمل إلا الشهادة الابتدائية أشرق وجهه بالامتنان وابتسم ابتسامة من يعرف قدر نفسه.

بعد أيام سوف أتقدم لمناقشة الرسالة، ولسوف تعقد للمناقشة لجنة علمية من أساتذة الكلية وأساتذة زائرين، قد تنتهي اللجنة إلى إجازة الرسالة، وقد تطلب إعادة كتابتها أو حتى رفضها لأبدأ من جديد. لم يعد لدي ما أفعله غير انتظار يوم المناقشة. وكانت فرصة لكي أقف مع نفسي وقفة تأمل، ماذا فعلت؟ وماذا سأفعل؟ وما الذي استفدته من هذه التجربة؟

لا شك أني وضعت قدمي على أول عتبات البحث العلمي، وتعلمت جوانب من منهجية البحث أرجو أن تفيدني في مقتبل أيامي، وتعرفت عن قرب على الأوضاع والخدمات الصحية في بلادي، واكتسبت بعض الدربة على الكتابة العلمية وازدادت قناعتي بأهمية التنظيم واحترام الوقت.

تعلمت في هذه الفترة شيئاً من طبائع البشر، عرفت من الناس من يسعده أن يساعدك دون أن ينتظر منك كلمة شكر، ومنهم من لا يكدر عليه صفو حياته شيء قدر أن تنجح. عرفت منهم من لا يستطيع أن يكذب عليك أو يخدعك، فطبيعته مستقيمة لا تقبل الالتواء. ومنهم من تستعصي عليه كلمة الحق، فهي أثقل على قلبه من جبل طارق. منهم من إذا كلف بعمل يؤديه ولا يزيد، وآخر يقصر في أدائه، وثالث يتجاوز في أدائه حدود طاقته. وكل ميسر لما خلق له.

جاء وقت مناقشة الرسالة، ووجدتني أمام خمسة أساتذة ممتحنين . استغرق النقاش ثلاث ساعات.. وأعلنت النتيجة.. ناجح بفضل من الله وتوفيقه.. ولو سئلت اليوم لمن أهدي رسالتي للدكتوراه. لما ترددت لحظة. أهديها إلى زوجتي، التي جاهدت معي صابرة محتسبة، وشجعتني على خوض التجربة بعد أن كدت أتوقف.

كان أمامنا قبل أن نغادر أمريكا نحو ثلاثة أسابيع أقوم فيها بتسجيل رسالة الدكتوراه وأنهي ارتباطاتي المعيشية. واخترت أن أستغل بضعة أيام في دراسة الوضع الصحي للأطفال في إحدى مستعمرات الهنود الحمر، وأن أزور مركز الأمراض المتنقلة في ولاية جورجيا، وأشارك في مؤتمر طبي علمي في مدينة ديترويت. ورتبت لي الجامعة برنامج الزيارة وحضور المؤتمر.

استقبلني في مطار أطلنطا بولاية جورجيا مندوب من مركز الأمراض المتنقلة كلف بترتيب زيارتي للمركز. وإذ نحن في الطريق إلى الفندق ذكر لي أنه ينتمي إلى جمعية دينية مهمتها دعوة الشباب إلى العودة إلى حظيرة الدين واتباع تعاليم المسيح (عليه السلام)، وعرض علي أن أحضر اجتماعاً سوف يعقد هذا المساء يحاضر فيه قسيس عن السيد المسيح عليه السلام.

رحبت بالدعوة، ورافقته إلى مكان الاجتماع، فيلا ضخمة تنم عن ثراء وجاه. وفي صالة واسعة وجدت نحواً من ثلاثين فتى وفتاة جلوساً على طنافس متناثرة، يستمعون إلى قسيس يحاضرهم عن المسيح.

قال القسيس فيما قال: المسيح جاء بدعوة المحبة والسلام والخير، وإذا ما آمنا بشيئين أولهما الإنجيل، وثانيهما أن خلاصنا سيكون على يد المسيح، ضمنا دخول الجنة.

بعد المحاضرة. تقدمت من القسيس وحييته. قلت: أنا أؤمن بالمسيح عليه السلام وبأنه رسول الله، وأؤمن بأمه العذراء. ولكن إيماني بهما جاء من مصدر آخر غير الانجيل.. من القرآن.. فهل لي حظ في الجنة؟

نظر إلي نظرة فاحصة. وهز رأسه يميناً وشمالاً.. أن لا!!

غادرت أطلنطا إلى ولاية أريزونا لدراسة الخدمات الصحية في مستعمرة للهنود الحمر من قبائل النافهو (Navaho) . الهنود الحمر في أمريكا لهم تاريخ وحضارة. وأغلب أفلام الهنود الحمر التي نشاهدها في السينما مسخ لهذا التاريخ وهذه الحضارة. أقمت ثلاثة أيام في المستعمرة. وجدتهم يسكنون في بيوت صغيرة متناثرة في البراري، ويعيشون أنماطاً من الحياة غير التي يعيشها الأمريكي الأبيض. بعض المسنين منهم لا يحسنون التحدث بالإنجليزية. والأبناء يؤخذون من المستعمرات إلى مدارس حديثة أنشئت في المدن يمضون فيها أيام الأسبوع الدراسي، يعودون بعدها إلى ذويهم لقضاء عطلة الأسبوع.

في المدرسة يتعلمون روح المنافسة والمنابذة، وفي المستعمرة يلقنون ثقافة التعاون والاسترخاء. وتمضي بهم الأيام بين هذين النقيضين من أساليب التربية، وعندما يتخرجون من مدارسهم ليلتحقوا بسوق العمل في المدن الكبرى، يقطنون أحياء خاصة بهم شأن الأقليات. ولا يطيق أكثرهم البقاء في المدينة بما فيها من تنافس وصراع وزحام، فيعودون إلى مستعمراتهم. وكنتيجة حتمية لهذا التناقض في أسلوب التربية، والفجوة بين ثقافة آبائهم والرجل الأبيض، يعيشون في صراع ويعانون من أكبر نسبة من البطالة، ويكثر بينهم الإدمان على الكحول.

قد تكون الصورة تغيرت بعد أكثر من ربع قرن، وعساها أن تكون. والجدير بالذكر أن الحكومة الفيدرالية وفرت لهم المدارس والمستشفيات والمرافق العامة. ولكن التصاقهم بحضارتهم وثقافتهم جعلهم لا يقبلون على ما وفرته الحكومة، وإن أقبلوا فثقافة آبائهم تشدهم. على سبيل المثال يذهب المريض منهم للعلاج في المستشفى، وفي الوقت نفسه يذهب إلى المعالج الشعبي، فإن شفي عزا شفاءه لطبيبه الشعبي وطقوسه الدينية.

ما رأيته في مستعمرة الهنود الحمر أكد لي ما سبق لي أن تعلمته من قراءاتي ومن تجربتي في الحياة، ذلك أن صحة الإنسان مرتبطة أكثر ما تكون بظروف البيئة والوضع الاقتصادي والاجتماعي والعادات والتقاليد أكثر مما هي مرتبطة بالخدمات الصحية، فالفوارق الصحية بين الهندي الأحمر والأمريكي الأبيض تعود أكثر ما تعود إلى فوارق البيئة والتعليم ومستوى المعيشة.

آن الأوان لأن نودع أمـريكا، وجـامـعـة جـونـز هوبكنـز، والمعـارف والأصدقاء، بعد أن أمضينا فيها نحو أربع سنوات سنظل نذكرها دائماً بالخير، بالرغم مما كان فيها من مشقة ومعاناة.

حـزمنا حـقـائبنا وشـددنا رحالنا إلى بريطانيـا، لأعـمل كطبـيب زائر لبضعة أسابيع في المستشفى التعليمي في مدينتي أدنبره ولنكولن قبل أن نعود إلى الوطن. في مدينة لنكولن صادفتنا في يومنا الأول مشكلة، ذلك أن المسؤولين في المستشفى قدروا خطأً أنني قادم إليهم وحدي. وفوجئوا بأسرتي معي. وسكن المستشفى ليس فيه متسع لعائلة. حاولوا أن يعثروا لنا على سكن ملائم في بلدتهم الصغيرة تلك فلم يوفقوا. وفي النهاية اهتدوا إلى حل، أقيم أنا في المستشفى، وتقيم زوجتي وطفلتي في سكن ملحق بدير للراهبات، ولم يكن أمامنا حل آخر.

أتيح لزوجتي أن تعيش تجربة جديدة ومثيرة، وأن تدير حوارات لا تنتهي مع الراهبات حول الدينين الإسلامي والمسيحي.. حاولن أن يكسبنها مؤمنة بالسيد المخلص المسيح، وحاولت هي أن تجتذبهن إلى الإسلام. ولم تنجح محاولات الطرفين.. بيد أن الاختلاف في وجهات النظر لم يفسد للود قضية، فقد لقيت زوجتي وابنتي من عنايتهن واهتمامهن الشيء الكثير.

ما زلت حتى اليوم أذكر بالخير الدكتور روبنسون رئيس قسم الأطفال في مستشفى لنكولن.. كان نموذجاً للطبيب الذي وهب نفسه لعلمه وفنه.

ينام ومعطفه الأبيض ومسماعه الطبي معلقان لدى الباب. فإذا ما استدعي في أية لحظة من ليل أو نهار لعيادة مريض لا يستغرقه الأمر أكثر من دقائق محدودة ليكون في طريقه إلى المريض، كان يحرص أشد الحرص على حضور التشريح المرضي لأي طفل يتوفى من مرضاه، لكي يقارن بين التشخيصين السريري والتشريحي، ويعرف موطن الخطأ والصواب.

هوايته صيد السمك.. خصص في بيته غرفة ملأها بأدوات الصيد من شباك وسنانير.. وفي عطلات الأسبوع يذهب مع صحبه للصيد في بحيرة أو نهر. يزنون ما يصطادونه من سمك ويسجلونه في أوراقهم، ثم يطلقون صيدهم في الماء. لقد تعلمت من انضباط الدكتور روبنسون وتفانيه في عمله الشيء الكثير.

كان أمامي شهر آخر أمضيه كطبيب زائر في المستشفى عندما وصلتني برقية من الوالد ينبئني فيها بعزمه على التوجه إلى لندن لإجراء بعض الفحوصات الطبية. وكان علي أن أختصر مدة بقائي في لنكولن لأرافق الوالد في رحلته العلاجية إلى لندن.

كنا في نهاية الستينيات الميلادية، وحركات الهيبيز على أشدها في أمريكا وأوروبا، يحمل لواءها شباب من الجنسين ثائرون على التقاليد الاجتماعية والروابط الأسرية. هذا شاب يمشي وفي أذنه قراط، وتلك

فتاة نكشت شعرها وصبغته بألوان قوس قزح.. كثير منهم حفاة، نصف عراة، روائح أجسادهم تزكم الأنوف.

في ميدان الطرف الأغر اقترب منا شاب يطلب شلناً لأنه جوعان ويريد أن يأكل. طلب مني الوالد أن أسأله لم لا يذهب إلى حلاق ليشذب شعره الثائر؟ قال: أنا لا أحني رأسي لحلاق! قلنا: هاك الشلن وعش دائماً مرفوع الرأس موفور الكرامة!

وقبل أن نغادر لندن عائدين إلى المملكة وفي يوم ٢١ يوليو ١٩٦٩ سجل التاريخ صفحة جديدة في سجله. نقل إلينا التلفزيون صورة نيل آر مسترونغ وهو ينزل من مركبته الفضائية أبولو على سطح القمر. وسمعنا مقولته الشهيرة: «إن هي إلا خطوة صغيرة لإنسان.. ولكنها قفزة رائعة للإنسانية».

وعدنا إلى المملكة لأبدأ فصلاً جديداً في معترك الحياة.